أسطورة الخلاص

'يأيها السائرون نياما لا تقنطوا من رحمة الصحراء'

– عند سيادة اللون الأصفر على هذا الكون ستعرف الحكمة من كونك.

ترددت أصداء العبارة في أرجاء كياني الخاوية. الطريق طويل تتخلله الخضرة و الصفرة لتكسبه جمالا وحشيا. أنظر للأفق المتموج من أثر الحرارة الحارقة. لم تصافح عيناي آخره؛ فعادت كاسفة. انشقت الأرض عن امرأة يكسوها السواد. تبينت بعد ذلك أنه شعرها الغزير الذي تتخذه رداءً لها.

أتساءل بمرارة أستشعرها تملأ فمي فتدفعني للقئ:

– أما لهذا الطريق من نهاية؟

بصوت عميق وكأنه صادر من أعماق سحيقة:

– ولما تريد نهايته؟

– علمت أن في نهايته الحقيقة التي أبحث عنها.

– حقيقة كنهك؟

بدهشة:

– ولكن كيف عرفت سيدتي أني أبحث عن ذلك؟

بحسرة:

– لا يهم كيف عرفت، ولكن ليتك لا تعرفها.

– لم سيدتي؟

- إنها قاسية وقاتلة.

- لكنها أملي الوحيد في الخلاص.

- إذن فأمامك خيار واحد

- ما هو سيدتي؟

أراها وقد فردت شعرها الملتفة به فصارت عارية. تقول بغواية قاتلة:

- أن تضاجعني كي تصل إلى بغيتك.

- عفوا سيدتي، إني لا يشغلني سوى الحقيقة.

- إذن، فعند سيادة اللون الأصفر على هذا الكون ستعرف الحكمة من كونك.

طال الطريق الخال إلا منّي. كان جحيميا لافحا ينثني كالثعبان. تنشق الرمال عن وردة حمراء فتكسب المنظر جمالا فاتنا. اقترب متنسما رحيقها فتستحيل إلى تلك المرأة. تقول:

- هيا افعل كي يزول عذابك.

أهرب رافضا. القنوط يتخلل مسامي. على بعد عدة فراسخ كانت الرمال متدرجة إلى طريق أرضي عميق. أهبطه بحذر. تقابلني العديد من الممرات المتداخلة. أقف متحيرا، مفكرا في أيها أسلك. كان يأتي من أحدها صوت ضعيف يتلاشى مع الريح. أسير فيه بمهل. تفرع إلى عدة ممرات ولكني تتبعت الصوت. هالني ما رأيت. كان هناك وحشا أسطوريا يشبه في جملته الإخطبوط. كان له رأس رجل، و كل ذراع من أذرعه هو عضو ذكري تتعلق بكل منه أنثى فاتنة. كانت

النساء تصرخ، لست أدري لماذا. قال الرجل الإخطبوط:

- مرحبا بك في مملكة التأوهات.

أقول مشدوها:

- ما سر تلك التأوهات؟

- إنهن يبحثن عن حقيقة الخلاص.

- و لم يتأوهن؟

- لأنهن في مرحلة الكشف، هيا تعلق بأحد أطرافي كي تصل إلى الكشف.

- لا ، إنك توهمهن.

حينذاك تحركت الجدران مقتربة منّي. ملمسها لزج. أتقزز بينما الأذرع الأخطبوطية تقترب منّي. أبحث عن ملجأ للهرب. أسرع نحو أحد الممرات. أدخل في دوامة كبيرة حتى وجدت طريقي للخروج. أجلس لأستعيد أنفاسي المنبهرة. بعد مسيرة عدة قرون كانت سيادة اللون الأصفر على الكون. أفتش عن الحقيقة مرهقا. أفشل ؛ فأجلس شاردا بينما القهر يعصرني. تلوح لي ناقة شاردة وسط الصحراء. ظننت أني أتوهم، لكنها اقتربت منّي وأمرتني باعتلائها ناشدة راحتي. أفعل شاكرا. لم أكد أستقر على ظهرها حتى اقشعر جسدي. تنتبه رجولتي من عالم الصمت المستكين. كانت الناقة تأتي بأفعال تزيد في الرغبة اشتعالا. تلوي عنقها نحوي بغية تقبيلي. أحاول القفز فأعجز. أتعلق بعنقها قافزا، فإذا بصوت المرأة الغريبة يرتفع مقهقها. ترتج أرجاء الصحراء. أنظر حولي فلا أجدها ولا أجد الناقة. أجلس عابثا

برمال الصحراء. كانت الرمال تنبض، تتشكل، تتجسم، تستحيل إلـى المرأة الغريبة. تمسي الرمال تلك المرأة. تهتف بتشفٍ:

- إنها أنا أيها الساذج، أنا الحقيقة.

يرفض عقلي الإذعان. تقول:

- جرب وسوف ترى.

أتأمل الرمال المجسمة بصورتها. أخلع ملابسي و ..... أدفن نفسي في الرمال النابضة!!

فبراير 1996 - زهرة البستان